طبقات المعنى في السرد الصوفي والانفتاح التأويلي اللامحدود

د: فائزة زيتوني
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

ملخص:

كان للمتصوفة وعي خاص بالزمان والمكان تبعا لخصوصية تجاربهم الغيبية الروحية، ففي الغالب تتحرر الكرامات من المكان والزمان، لتدور حوادثها في عوالم افتراضيّة وهمية أقرب إلى الحلم والخرافة، لقد تخيّر المتصوفة فضاءات خاصّة لممارسة طقوس خلواتهم يلعب فيها الظاهر الطبيعي والسمة الجغرافية الدور الرئيسي في اختيار هذا المجال أو ذاك وهو ما حفز البعد الغرائبي واستثار الأبعاد الرمزية لتلك الفضاءات، إنّ نظرة فاحصة لفضاء المغارة يكشف عن مجموعة من المتقابلات التي يمكن لهذا المجال أن يكثفها خاصة بالنسبة للمتصوف، سنحاول هنا استنطاق الحقل الرمزي لظاهر المغارة، وما يحيل إليه من تماثلات فضائية وفيوضات دلالية وإحالات معرفية فكرية ودينية لنلاحظ كيف أمكنه الانتقاء والارتقاء بالممارسة الصوفية التعبدية من مستواها الظاهر السطحي إلى المستوى العميق الروحي الرمزي.

الكلمات المفتاحية: تصوف ؛ كرامة ؛ مغارة ؛ تأويل ؛ ثنائيات ضدية.

Abstract :

The Sufis had a special awareness of time and space depending on the specificity of their metaphysical, spiritual, mostly liberated dignities of space and time, to spin her accidents in fake virtual worlds closer to dream and fable, you choose the private spaces of the Sufis practice rituals where natural phenomenon plays a dimmer switch Geographic feature lead role in choosing this field or that which stimulate Orwellian dimension and symbolic dimensions provoked those spaces, to look for astronaut cave reveals a set of the opposite field that could intensify, especially for a devout person, try here the symbolic field pop quiz Grotto, and transmitting of semantic of the corresponding assignments of intellectual and religious knowledge to observe how picking places and a higher apparent level of devotional Sufi practice surface deep symbolic spiritual level.

Keywords : mysticism ; dignity ; Grotto ; interpretation ; rabies binaries.

I- تمهيد : يلعب الزمان والمكان دوراً مهمّاً ضمن أي عملٍ سرديٍّ، وإذا كانت الكرامة نقلاً لأحداث خارقة، وتصويرا لوضعيات فوق عادية، تتعلق بشخصيات متميزة، فإنّه لا يُعقل أن يسربل ذلك الكائن المميز أماكن وفضاءات عادية بل إن العجائبية والسحر سيلفّ حتماً مجالاتها الحسّية والغيبية أيضا، ويُثريها بكثافة رمزية، وحمولات فلسفية، وأجواء طقوسية غنية وساحرة.

كان للمتصوفة وعي خاص بالزمان والمكان تبعا لخصوصية تجاربهم الغيبية الروحية، ففي الغالب تتحرر الكرامات من عقال المكان والزمان، لتدور حوادثها في عوالم افتراضيّة وهمية أقرب إلى الحلم والخرافة، هي أحد أهمّ الإشكالات الجوهرية لهذه الحكايات الّتِي يدعي مدونوها من مريدين تحرى الدقّة الموضوعيّة في سرد أخبارها فيما تذهب أبعاد عناصر أبنيتها السردية في الاتجاه المعاكس تماما.

لقد تخيّر المتصوفة فضاءات خاصّة لممارسة طقوس خلواتهم يلعب فيها المعطى الطبيعي والسمة الجغرافية الدور الرئيسي في اختيار هذا المجال أو ذاك وهو ما حفز البعد الغرائبي واستثار الأبعاد الرمزية لتلك الفضاءات " لما قد يشكله الرمز من أبعاد جوهرية تؤسس لوجود الانسان، ولعلاقاته بذاته، وبالآخرين وبالكون"[1] والطبيعة من حوله.

وانطلاقا من هذا صحّ لنا أن نبني علاقات دلالية كثيرة ونستشعر أبعاد رمزية كثيفة تربط الصوفي بالمجال الطبيعي الذي **يهيئ له الدخول في عوالمه الروحية العجائبية**.

وشكّلت المغارات بالنسبة للمتصوفة فضاءات مثالية للاختلاء والزهد والتعبد، كما هو الشأن أيضا بالنسبة لقمم الجبال وبطون الأودية، والفيافي والقفار وغيرها من **أماكن التّجلي والكشف وحلول السرّ الالهي**. فليس من الغريب إذن أن تهيمن تلك الفضاءات على الحقول المكانية للسرود الكراماتية لدى متصوفة المغرب العربي قديما.

إنّ نظرة فاحصة لفضاء المغارة يكشف عن مجموعة من المتقابلات التي يمكن لهذا المجال أن يكثفها خاصة بالنسبة للمتصوف، وسنحاول هنا استنطاق الحقل الرمزي لظاهر المغارة، وما يحيل إليه من تماثلات فضائية وفيوضات دلالية وإحالات معرفية وفكرية ودينية لنلاحظ **كيف أمكنه الانتقاء والارتقاء بالممارسة الصوفية التعبدية من مستواها الظاهر السطحي إلى المستوى العميق الروحي الرمزي؟** أي أننا سنحاول مساءة البنيات الخفية التي تشتغل بعمق داخل منطق الممارسة والطقوس الصوفية للمغارة ؟

ومنه جاز لنا التساؤل: **ما اللغز الخفي والسر الكامن وراء هذا الافتتان بموضوعة المغارة وما الدافع خلف تواتراته اللفظية وتعدداته الاصطلاحية وتناسلاته الدلالية بحسب العرف الصوفي في تلك الخطابات المنقبية (الكرامات)؟**

المؤكد أنّ الاجابة عن تلك التساؤلات تقتضي منا القيام بمسحة ولو سريعة على المقابل اللغوي والعلمي وكذا المرجعية الدينية للفظة المغارة؟

1.I- المغارة لغة واصطلاحاً :

المغارة في اللغة: جمع : مَغَاوِرُ ، مَغَارَاتٌ . من الجذر [غ و ر] وإِكْتَشَفَ مَغَارَةً كَانَ يَسْكُنُهَا إِنْسَانٌ مِنَ العُصُورِ القَدِيمَةِ، **والمغارة هي الكَهْفُ** ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ حُفْرَةٍ فِي دَاخِلِ الجَبَلِ .

أما من الوجهة الاصطلاحية العلمية:

الكهوف والمغارات فجوات عميقة في الأرض، نتجت عن تسرب مياه الأمطار، لتشكل مغارات وسراديب تحت الأرض، وتعد إحدى عجائب الطبيعة وغرائبها التي تكونت في ظل ظروف جيولوجية معينة ، بهرت من شاهدها من الرّحالة والمستكشفين، وتشكلت بفعل ذوبان التربة الهشة التي بين الصخور الصلبة حتى صارت مغارات كالشقوق، يذهب بعضها في الأرض إلى عدة كيلومترات، وقد يتصل بعضها ببعض، لتصبح مجاري لمياه السيول في باطن الأرض, وعلى مر السنين توسعت هذه المجاري لتصبح كالأنفاق، تتسع، وتضيق، وتلتوي في باطن الأرض، مكونة سراديب طويلة، هي كنوز طبيعية وجزء من التراث الطبيعي والبيئي ...

وعُرفت الكهوف والمغارات منذ القدم على أنّها الملجأ والملاذ الأول للإنسان الذي كان يسكنها لتقيه تقلبات الطقس وتغيرات الطبيعة وأخطار الضواري والزواحف والحشرات، كما واستخدم الإنسان الكهوف لتخزين المواد، وأخرى استخدمت كملاجئ حرب. وكانت المغارات الموجودة في المناطق الصحراوية ملاذا آمنا للمسافرين من حرّ الشمس ومن برودة الجو ومن عواصف الرياح (الكثبان الرملية).

2.I- المغارة في المرجعية الدينية والصوفية :

لقد كانت المرجعية الدينية دوماً هي الأساس في تفسير كافة أنماط الفعل الانساني الصوفي الخارق؛ وسأقف هنا على نماذج دينية عدة ترتبط مباشرة بثيمة المغارة وتؤكد خصوصية فضائها وتميز تجربتها وفرادة دلالتها، من مثل:

1.كرامة أصحاب الكهف: وهم أُناسٌ صالحون، عاشوا في قوم مشركين، آمنوا بالله، وخافوا أن يُغلبوا على آمرهم، هاجروا من أرض الظلم إلي الله عز وجل, وخرجوا بدينهم خوفا من القوم المفسدين، فيسر الله لهم غاراً في جبل، وجه هذا الغار إلى الشمال، فلا تدخل الشمس عليهم فتفسد أبدانهم ولا يحرمون منها، أنامهم الله ثلاثة قرون وتسعة أعوام، وخلال تلك الفترة كان يحفظهم ويرعاهم ويبعد عنهم حرارة الشمس وأشعتها في طلوعها وهبوطها، لم يزعجهم الحر،

ولم يؤلمهم البرد، ما جاعوا وما عطشوا وما ملوا من النوم بقوا هكذا حتى بعثهم الله، وقد زال الشرك عن هذه القرية، فسلموا منه إكراماً لهم، وأخبر القرآن عن حالهم في

قاله **تعالى:**﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا. ﴾ **إلى أن قال:** ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾[2].

2. **غار حراء**[3]**:** وهو الغار الذي كان يختلي فيه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قبل نزول القرآن عليه بواسطة جبريل، وذلك في كل عام، وهو المكان الذي نزل الوحي فيه لأول مرة على النبي. وغار حراء هو عبارة عن فجوة في الجبل، بابها نحو الشمال يقع في شرق مكة المكرمة هو الغار المُظلم المعتم الذي يقع في أعلى جبل النُّورأو "جبل الإسلام"، على ارتفاع 634 متر، ويبعد تقريبًا مسافة 4 كلم عن المسجد الحرام. إنّه الغار الذي شعّ منه نور الإسلام حتّى ملء السّماوات والأرض وما بينهما؛ ففي هذا الغار نزلت أولى كلمات القرآن الكريم والرّسالة الإسلاميّة على النّبي محمّد صلى الله عليه وسلم.

فبعدما اتسعت الشُّقة الفكريّة والعملية بين النّبي صلى الله عليه وسلم وبين قومه، وطفق يقلق ممّا هم عليه من عبادة الأصنام، وشرب الخمر، وحضور مجالس اللّهو والسّمر ونواديها التي كانت منتزه الشّباب وملتقى الأحبة في مكّة، حينها قرر عليه السّلام الاعتزال والخلوة بنفسه مع إشغال نفسه بالتفكير في سبيلٍ ينجيه من التعاسة والبوار، وزادت هذه الرّغبة في الخلاص مع تقدُّمه صلى الله عليه وسلم في السِّن؛ فأخذ يخلو بنفسه في غار حِراء ويتعبد الله على ما تبقّى للعرب من دين إبراهيم عليه السّلام. كان موعد هذه الخلوة التّعبديّة شهرًا واحدًا في السّنة وهو شهر رمضان، وبعد انتهاء الشّهر في التّعبد والتّأمل في السماء والأرض والمخلوقات يعد عليه السّلام إلى مكّة في الصّباح؛ فيبدأ بزيارة البيت الحرام ويطوف حول الكعبة ثُمّ ينطلق إلى بيته وزوجته وأبنائه. في إحدى خلوات التّعبد في غار حِراء حدث أمرٌ لم يكن بالحسبان؛ فقد جاء جبريل عليه السّلام حاملًا معه الرّسالة الإلهيّة إلى خير البريّة، وكان حينها يبلغ الرّسول أربعين عامًا وهو سِنُّ الكمال والرُّشد، وهذا الغار شهد نزول أولى آيات القرآن الكريم:(من سورة اقرأ)، ومنه انطلق نور الإسلام ليعمّ أرجاء المعمورة، ويزيل الجهل والظّلام، ويجعل منهم خير أمةٍ أخرجت للنّاس.

3. **غار ثور**[4]: أوى النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق وهما في طريقهما إلى المدينة المنورة إلى غار ثور حتى ذهاب قريش عنهما التي كانت تطاردهما ثم تابعا طريقهما بعد ذلك. وفي أثناء وجودهما في الغار جاءت قريش تبحث عنهما، حتى وقفت على فم الغار، إلا أن الله ردها بفضله وقدرته، يقول أبو بكر: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال له النبي: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[5]. وقد ذكر الله هذه الحادثة في كتابه فقال سبحانه:﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[6] .

4. **قصة أصحاب الغار :** ومن نماذج الكرامات المذكورة في السنة النبوية الشريفة والمتقاطعة أيضا مع الدلالات الدينية القدسية للمغارة كرامة موجودة في سير الأمم السابقة، انطبقت عليهم الصخرة لتسد مدخل الغار، وقد وردت في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم: «حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزّهريّ حدّثني سالم ابن عبد الله أنّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم **يقول**: انطلق ثلاثةُ رَهْطٍ ممَّن كان قبلكم حتّى آووا المبيت إلى غارٍ فدخلوه فانْحدرتْ صخرةٌ من الجبل فسدَّت عليهم الغار فقالوا إنّهُ لا يُنجّيكم من هذه الصخرة إلا أنْ تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجلٌ منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنتُ لا أغْبِقُ قبْلهما أهلاً ولا مالاً ... حلبت لهما

غَبُوقَهُما فوجدتهما نائمين وكرهت أنْ أَغْبِقَ قبلهما أَهلاً أو مالاً فلبثتُ والقدح على يَدَيَّ أنْتظر استيقاظهما حتى بَرَق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عَنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيأً لا يستطيعون الخروج. قال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلّم : وقال الآخر اللهم كانت لي بنت عمٍّ كانت أحبُّ الناس إليَ فأردتها عن نفسها فامْتنعت منّي حتى أَلَمَّتْ بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينارٍ على أنْ تُخَلّي بيني وبين نفسها ففَعَلت حتى إذا قَدَرْت عليها قالت لا أحل لك ...فتحرّجْتُ من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحبُّ الناس إليَّ وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافْرُج عَنّا فانفرجت الصخرة غير أنّهم لا يستطيعون الخروج منها. قال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلّم: وقال الثالث اللهمّ إنّي استأجرت أُجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجلٍ واحد ترك الذي له وذهب فثمّرْتُ أجره حتّى كثر منه الأموال فجاءني بعد حين، فقال يا عبد الله أَدِي إليَّ أجري، فقلت له كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت إنّي لا أستهزئ بك فأخذه كلّه فاستاقه فلم يترك منه شيْأً، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافْرِجْ عَنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشونَ »[7].

5. كما نعثر في الكرامات الصوفية الجزائرية القديمة على العديد من النماذج التي لا حصر لها كلها تكشف من الدلالات الغيبية لدال المغارة من مثل: كرامة **لسيدي شعيب بن الحسن الأندلسي:**[8] ذُكر عنه أنه قال: "كنت في أول أمري وقراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به،وانصرفت **لموضع خال خارج فاس اتخذه مأوى للعمل بما فتح الله به علي فإذا خلوت به** تأتيني غزالة تأوي إلي تؤنسني..."[9].

ومن ذلك كرامة **لسيدي عبد الله بن منصور الحوتي المغراوي:**[10] " ومن كراماته أيضا وهو **في خلوته في غار بنت عامر**، فدخل عليه ابنه سيدي محمد، وهو صبي صغير، فوجد عرمة من الذهب في طرف **الغار** فعمَّر منها في طرف ثوبه فجاء به إلى الشيخ. فأراه إياه. فقال له الشيخ: امش، واشتري به الروض المسمى تاغزوت وحسبه على أولاده"[11] وغيرها الكثير.

الثنائيات الضدية لدال المغارة في النصوص السردية الصوفية :

إنّ أي دراسة أو مقاربة سيميائية سردية للمكان تنطلق« من فرضية مفادها أن الفضاء نظام دال يمكن أن نحلّله بإحداث التعالق بين شكلي التعبير والمضمون»[12] بمعنى أنّ دراسة المكان أو التفضيء(Spatialisation) يقتضي تخطيبا للمجال الّذي أسندت إليه مجموعة من المواصفات لكي يتحول إلى **فضاء دال**، وبهذا يُعدّ التفضييء **برمجة مسبقة للأحداث** وتحديدا لطبيعتها، ورصداً لطبيعة الفعل المنجز فيه، إذ هو ليس مجرّد إطارا فارغا تصبُّ فيه التجارب الإنسانيّة[13]. إنّ الدور الذي يلعبه المكان في دفع عجلة الأحداث ورصد الدلالات، وتكثيف الشفرات الرمزية، دور **مركزي ومفصلي**، إذ لم تكن الأمكنة مجرد إطارات خارجية أو ديكورات جافّة تُصَب فيها تجارب المتصوفة الخارقة صبا مبتذلاً، بل كان المجال أو القضاء جزء لا يتجزأ من المكونات الجوهرية للتجربة الصُّوفية, وفي بعض الأحيان **كان هو التجربة ذاتها شكلاً ومحتوى وغاية** ؛ خاصة إذا تعلق الأمر بتلك الأمكنة المشبعة بالحمولات الدينية والخلفيات القدسية والمسوحات الأخلاقية من مثل: **المغارة أو الكهف**، والمقصورة، والمحراب ، والصحراء والجبل ... **وتتّفق جميعها في توفير الخلوة والعزلة المادية والروحية لذات البطل الصوفي (الشيخ) .**

قد يحيل المكان الواحد **لأكثر من دلالة، تربطها بُنى ضدّية متقابلة** ولكنها لا تحيل بالضرورة إلى تجربة **مضطربة متناقضة في ذاتها**، بل قد تعكس تجارب خصبة عميقة ومتنوعة مثلما هي التجربة الصوفية نفسها، وهو ما يدخل في مبدأ **التقاطب المكاني**، ذلك المفهوم الذي جاء به **يوريلوتمان** في كتابه "بنية النص الفني" عام 1973م، حيث يبني « داسته على مجموعة من التقاطبات المكانية الّتي تظهر على **شكل ثنائيات ضديّة**، تجمع بين عناصر متعارضة، وتعبر عن العلاقات والتوترات الّتِي تحدث عن اتصال الرَّاوِي أو الشخصيات بأماكن الأحداث»[14].

إنّها بمثابة **عتبات عبور و تداخل بين عالمين متناقضين**، لكلّ منهما طبيعة مادية وروحية مضادة للآخر ومختلفة عنه تماماً. ولعل هذا ما يكشف التصورات الرمزية والأبعاد الماورائية حول تلك الامكنة "إذ ليس العالم بالنسبة للإنسان مجردة بنية مادية مرئية بل هو كذلك بنية لا مادية مكونة من الزمن ومن الايقاعات والعلاقات والعلامات المخبوءة"[15]، ومنه كان هذا الفضاء **(المغارة)** يُحيل بحقّ رغم انكماشه اللفظي وانضغاطه اللغوي إلى الانفتاح الدلالي والتعدد التأويلي اللامحدود

وعليه قمنا برصد أهمّ الثنائيات الضدية التالية لدال **المغارة**:

1) **الصّواعد / النّوازل:** فعلى صعيد البنية الشكلية المادية تكرس المغارة لفعل ظاهري طبيعي متناقض، إذ تحوي المغارات على ما يعرف بظاهرة:

-النّوازل الكلسية (Stalactites) - الصّواعد الكلسية (Stalagmites)

والناتج عن فعل المياه الجوفية، وتتشكل هذه الصواعد والنوازل عندما يرشح الماء ببطء على جدران المغارات وسقوفها، حيث يأخذ عندئذ بالتّجمع نقطة فنقطة، ويتبع ذلك انفصال كربونات الكالسيوم في الماء فيكوّن نوازل متدلية من السقف، وتتراكم الصواعد بشكل مماثل من القاع لتكوّن في الأخير أشكال **متعاكسة** غاية في السحر والجمال الطبيعي.

2) **الدنيوية / القُدسيّة:** فرغم وجودها الدنيوي المادي المحسوس، إلا أنها ذات أبعاد قدسية خارقة، فوق عادية مهيئة سلفاً لحتواء أي فعل خارق فيه انتهاك لسنن الكون، خاصة بما يثيره الموروث الديني الحافل بالمشاهد الغيبية والقصص الغرائبية المرتبطة أساسا بتلك الأماكن .

3) **الزمان/ اللازمان:** إنّ المغارة تجسيد لنمط خاص من الممارسة الزمنية، ممارسة يصطبغ فيها الزمن بصبغة مخالفة للزمن التاريخي التعاقبي (زمن الناس العاديين) إذ لا مجال لإخضاعه لمقاييس الزمن الخطي، بل هو **زمن نفسي، باطني**، يخضع لخلجات الصوفي وشطحاته وتجاربه الارتحالية العميقة، والمرجعية القرآنية (من خلال سورة الكهف) تجسيد فعلي لذلك التخطي والتجاوز والانفلات الزمني .

4) **الضيق / الاتّساع**: فالشكل الخارجي للمغارة يكرس للضيق والانغلاق ومحدودية المجال والرؤيا، لكنها في عرف المتصوفة عيشت كفضاءات رحبة واسعة، حيزها مطلق لا محدود.

5) **البعد / القرب:** فالمغارات غالباً ما تتواجد في أماكن بعيدة المنال بمعنى أنها تعكس دلالة النأي والنّوى السراب الطيف الوهم...، لكنها بالمقابل فضاءات تسمو بروح الصوفي إلى مقام القرب والحلول والمشاهدة وتصل به إلى الحقيقة المطلقة.

6) **العلو / الدنو:** الدنو صفة للفضاءات الأرضية السفلى، ولكنّ المغارة بحسب التجارب الصوفي الممارسة فيها من شأنها أن تطفو وتسمو وتعلو بروح الولي الصوفي إلى الأعلى ليتحرر من الضرورات والتحديدات الدنيوية المقيدة والملجمة لروحة وجسده على السواء .

ثم إنّ ارتفاع الفضاء وعلوه جغرافيا على مستوى سطح الأرض أراه إحالة أخرى إلى الرحلة المعراجية التي تتدرج فيها ذات الصوفي من مقام إلى مقام بعد خوضه للمجاهدات المضنية وصولاً إلى مقام المشاهدة لتكون المشاهدة "إعلان عن نهاية الرحلة الصوفية، وإيذان ببداية رحلة أخرى معكوسة، عودة جديدة وشكل جديد للوجود ...ولن يكون الشكل المبحوث عنه من خلال هذه الولادة الصوفية إلا ذلك الولي/الصالح الذي تولاّه الله وانكشف له سرّ الملكوت"[16].

7) **الداخل/ الخارج:** ذلك لأنّها فضاءات **خارجية مادية برانية** لكنها في الحين ذاته تساهم في انعكاف وانعطاف الولي إلى ذاته وردته إلى **الداخل و الباطن والجوهر** .

8) **عمودية / أفقية** : حيث تتحرك بالذات الصوفية في اتجاه عمودي مستقيم نحو الأعلى وعلى امتداد الأفق، وروح الصوفي **تلزمها الحركة والانطلاق، دائمًا وأبداً**، فإن سَكَنَت كان في ذلك موتها، أي تُحال إلى جسد يقابلها على الأرض، إنّها روح تهوى دوما الانفلات من الجاذبية الأرضية نحو فضاء الكون الفسيح.

9) **منفتحة / منغلقة** : منفتحة أمام مكاشفات المتصوفة وشطحاتهم وفي الوقت نفسه هي مستعصية متمنعة منغلقة عن غيرهم، كما أنّ انغلاق المغارة وثبات مكانها وسكونه يدخل في علاقة ضديّة مع روح الصوفي؛ التي لا يحدّها شيء، ولا يحجبها شيء، متحفّزة باستمرار من أجل امتلاك منافذ الصعود، وقطع عتبات مدارج العالم العلوي، عالم النور، والحقيقة والتوحد ...

10) مسكونة/ مهجورة : هي أماكن معزولة مهجورة مقفرة موحشة وخالية، لكنها في ذات الوقت عامرة مؤنسة بأرواح المتصوفة وأجسادهم الطاهرة.بل إنّ شرط الولادة الروحية لذوات المتصوفة لا تتم إلا من خلال الخلوة التي تكون عادة في الأماكن المعزولة البعيدة، وعليه تصبح المغارة المكان **الأمثل** للخلوة والمؤشر المسبق والارهاص المبدئي لتحول ما أو لنقل عتبة لا بدّ منها لأي انتقال روحي خاص.

11) **مظلمة / مضاءة**: رغم غياهب المغارة المظلمة، إلا أن الانبثاق والولادة الجديدة والانفتاح على عوالم النور والاشراق لا يكون إلا من عالم الظلام (الذي يجسده الرحم) ، والسياق الصوفي كثيراً ما يحرص على تكثيف رمزيات السياق النوراني باعتباره: مرحلة للمشاهدة، وانكشافا للحجب، وفيضا لأنوار الكمال، واشراقا لعتمة القلب... كما يتحقق الضياء في تلك الأماكن من خلال **الصحوة وامتلاك المعرفة المطلقة** بعد ظلمات الجهل والغفلة، إنّه« انفلات من ظلم جهل الإنسان بنفسهِ إلى فضاء المعرفة بهذه النفس»[17].

12) **محيية/ مميتة** : تعكس جدلية الفناء والبقاء لذوات المتصوّفة، يخوض فيها الصوفي حرب ارتدادية نحو ذاتِهِ، من أجل قتل ذلك الشيطان الذي يسكنها ويتملكها. فبعد المخاضات العسيرة المهلكة جاز لروح الصوفي استحقاق الدخول إلى عوالم الحقيقة والتوحّد والمعرفة المطلقة والحياة الأبدية، عوالم تؤكد الذات وتقدّسها وتخلّدها بعيدا عن المظاهر الخادعة المزيفة. إنّه تجسيد لرغبة مكبوتة في احقاق ولادة جديدة، ولادة لا تتم إلا عبر السياق الجغرافي والتاريخي والديني نفسه، والرغبة في التجدد سر صوفي أصيل، إنه شكل من أشكال البحث عن الاستمرارية الروحية والخلود الرمزي.

13) **المجاهدة والمكابدة والتخلي/ التحلي والتجلي والقرب:** إنّ طريق الوصول إلى الله وإلى الصفاء والتحلي طويل وشاق وعسير يخوضه المريد بإرادة من حديد يتدرج فيه عبر محطات ومراحل أو مقامات يُفضي ويُسلم بعضها إلى بعض وعليه سموا السير في تلك الطريق سفراً وأطلقوا على صاحبها: مريد السفر، السائر، السالك، ولمن قطعها وبلغ المراد بالواصل، وامتلاك الذات الصوفية للطمأنينة والراحة والامتلاء المعرفي والإشباع القيمي لا يتأتى طبعاً إلاّ بعد مجاهدات وعذابات للنفس وثورات داخلية وخارجية وصراع فتاكة مع متطلبات الجسد وشهواته.

14) **الفصل/ الوصل**: توفر المغارة شرط **الفَصْل** عن الناس من أجل **الوَصْل** بالله ، فتحمل معنى **البعد والقرب** معاً . فقد كانت تلك الفضاءات متنفس للشيوخ, وحافظة أسرارهم, ملائمة للمناجاة والتأمل والتدبر والمجاهدة والعمل بما فتح الله عليهم من مواهب ربانية, كما ووفرت لهم الهدوء والسكينة الذي تفتقده العديد من الأماكن الأخرى, وساعد هدوءها على الصّفاء بربهم والتواجد بقربه .

النتائج ومناقشتها : وأمام هذا الظاهر المعقد والتداخل الضدي الفارق في مسلكيات المغارة وأبعادها الدلالية لا يسعنا إلاّ القول أخيراً:

لقد أضحت المغارة -كمجال مادي ورمزي- **سرّاً من الأسرار الوجودية** في التصوف لكونه **المكان النموذجي لممارسة الخلوة الصوفية وكحافز قوي يكرس ويؤكد الرغبة الدفينة للشيخ الصوفي في امتلاك منافذ الصعود إلى عالم الفوق عالم الحقيقة الأبدية.**

كما وكانت المغارة بمثابة **الرحم الرمزي بالنسبة للمتصوف يحتضن جسده وروحه وينكفئ عليها ليعيد خلقه وبعثة وميلاده من جديد حينها يصبح كائناً أكثر اكتمالا وأصفى روحا الذي هو الولي؛** لكن هذه الولادة الثانية لا تكرر الأولى، أي الولادة الطبيعية الفيزيائية، بل هي ولادة صوفية جديدة من صعيد روحي، غايتها الوصول إلى نمط جديد من الوجود.

وقد انتظمت حقولها الدلالية وفق سلسلة من المسارات الطبيعية والمعنوية المتقابلة والمتقاطعة في نفس الوقت من مثل: (الظلام/النور، الأسفل/الأعلى، التحت/الفوق، الشمال/اليمين، الداخل/الخارج، المغلق/المنفتح، الموت/الولادة الجديدة، الزمان/اللازمان، المكان/اللامكان، الضيق/الاتساع، ...) هي تقابلات تكثف الثابت البنيوي الجوهري الذي يُحيل في مداه وحدوده القصوى إلى: **التعارض الأزلي بين القطبين المركزيين:الخير/الشر ، المدنس/المقدس** وعلى أساس هذا التعارض التراجيدي يمكننا فهم أقطاب الثنائيات الأخرى، في حين ينبغي أن نؤكد أن فرار الذات الصوفية هو أولاً وأخيرا **هروب من عالم الثنائيات الضدية المؤسسة للوجود البشري والمقيدة له والانفلات إلى عالم الحقيقة الواحدة المقدسة الثابتة.**

وعليه حقّ للشيخ الصوفي **التحرر الإرادي من الزمن وصرامته وسطوته، ومن قبضة المكان وجغرافيته وتضاريسه الحتمية** النافذة على الانسان العادي والمتحكّمة في مصيره .

الخلاصة :

لقد أفرغ المتصوفة هذا الفضاء (المغارة) من كل محتواه المادي ومتعلقاته الدنيوية، وصبّوه في قالب ديني صوفي وبَصمُوا عليها بطابع رمزي، **يُحَيّن الخرق،** ويُحيل إلى الهجرة الكبرى إلى الله كمسألة أساسية تنعتق فيها الروح من أجل التمهيد للدخول في عالم جديد، مع مقاومة كل المعوقات الّتِي تحول دون تحقيق ذلك.

جسدت المغارة بحق فضاء**: نفسيا، باطنيا، غيبيا، مقدسا،** يخضع لخلجات الصُّوفي وشطحاته وفحوى تجاربه الخارقة , وكأنه عبر هذا الإيقاع الخاص والممارسة الفريدة يحاول الولي الصُّوفي أن **يستعيد حميمية الزمان والمكان الأصل, منبع وأصل وجوده المتجدد** .كما قد يشتغل بنفس الدلالة الرمزية مجال الجبل؛ باعتباره ذلك الامتداد العمودي نحو السماء والذي يوحي برغبة ما في الالتحام بالفوق ، كتجسيد لرغبة الصوفي في الارتقاء والسمو الروحي .

من ذلك **من كرامات سيدي حمزة بن أحمد المغراوي**:[18] "وسبب توبته أنه ركب فرسا وهي حامل فطلع بها عقبة جبل فأتعبها فلما بلغ رأس العقبة انطقها الله الذي أنطق كل شيء، فقالت له: أتعبتني يا حمزة، فنزل عنها وخلى سبيلها ثم مضى لبيته مهموما، فرأته كذلك زوجته وكانت من أكابر الأولياء، فكاشفت عليه وقالت يا حمزة: كلمتك فرسك وبقيت مهموما منها "[19] . والصحراء أيضاً قد توحي في امتدادها اللامحدود بفكرة الالتقاء الأفقي بالسماء والالتصاق بها مما يجعل هذا المجال التجسيد الرمزي لذلك التقاطع بين عالمين متناقضين: عالم الأرض (الدنيا)/ وعالم السماء (الغيب) . من مثل كرامة **للحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد المزيلي الراشدي أبو علي، المشهور بأبركان:**[20] "وله مكاشفات كثيرة وكرامات، منها ما ذكره السنوسي، وأخوه سيدي علي[21]، قالا: كان يتوضأ في صحراء يوما، فإذا بأسد عظيم قد أقبل فبرك على سبّاطه[22]، فلما فرغ من وضوئه التفت إلى الأسد، فقال له: تبارك الله أحسن الخالقين، ثلاثا، فأطرف الأسد برأسه إلى الأرض كالمستحى، ثم قام ومضى" [23].ومن ذلك أيضا كرامة **لعبد الله بن منصور الحوتي بن يحي بن عثمان المغراوي:**[24]"ومن كراماته ما ذكر بعض جيران داره في درب الأندلسيين، قال : سافرت للصحراء أريد الذهاب إلى السودان، فلما بلغت قصر تفورارين لم أجد هناك شعيرا أشتريه لعلف الخيل، وقال لي رجل من الذين نزلت عندهم: أعطني الحصان و الجمل وامشي للشط الظهراني أشتري لك الشعير، فأعطيته الجمل و الحصان، فذهب بهما، فلما مرّ نصف الليل و أنا نائم فإذا بالضرب على باب الدار، فقمت وخرجت فوجدت صاحبي راكبا على الحصان فقال لي بالك (كذا) الحصان، فقلت: و أين الجمل ؟ فقال: ذهب. فقلت: لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم، ذهب الجمل. فقلت: يا سيدي عبد الله: غررتني، وأنا اتكلت على الله وعليك، أطالبك غدا يوم القيامة. ونمت حتى أصبح الله بخير الصباح، وإذا بالنداء عليّ أبشر فإن الجمل قد جاء، فقلت له: يا سيدي من أتى به ؟ فقال: وجدته بارك في باب الدار و الحمد لله، و قد جاء من مسيرة يومين أو ثلاثة نفعنا الله به" [25] ...

الإحالات والمراجع :

[1] محمد جحاح: **الرمزي والمتخيل في بنية واشتغال الحقل الصوفي**، نحو رؤية سوسيو - أنثروبولوجية ، مجلة: التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد:97، السنة الرابعة والعشرون، آذار 2005- 1425، ص: 23.

[2] سورة **الكهف**، الآية 25.

[3] **غارحراء** ، طوله أربعة أذرع وعرضه ذراع وثلاثة أرباع، ويمكن لخمسة أشخاص فقط الجلوس فيها في آن واحد. والداخل لغار حراء يكون متجهًا نحو الكعبة كما ويمكن للواقف على الجبل أن يرى مكة وأبنيتها.ويقع على بُعد أربعة كيلومتراتٍ من الكعبة المُشرّفة في المملكة العربيّة السّعوديّة، وعلى ارتفاع يصل إلى أكثر من ستمائة متر، غار حِراء يقع في النّاحية الغربيّة من مكّة المكرّمة، ويكون على الجهة اليُسرى للمتجه نحو جبل عرفات، والغار عبارة عن تجويفٍ صخريّ في جبل النّور، وله فتحةٌ واحدةٌ للدُّخول إلى الغار نحو الشّمال، مساحة الغار من الدّاخل صغيرةٌ فهي تتسع لخمسة أشخاصٍ فقط في وضعيّة الجلوس، وعند الدُّخول إلى الغار يكن وجه الدّاخل تلقاء الكعبة.

[4] يقع في **جبل ثور** في مكة المكرمة غربي السعودية، ويقع على بعد نحو أربعة كيلو مترات في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام .وهو الغار الذي أوى إليه النبي محمد ﷺ وأبو بكر الصديق وهما في طريقهما إلى المدينة المنورة في رحلة الهجرة النبوية، فدخلا فيه حتى إذا هدأ طلب قريش لهما تابعا طريقهما.

[5] رواه **البخاري ومسلم** .

[6] سورة **التوبة**، آية: 40

[7] البخاري: **صحيح البخاري**، شركة الشهاب، الجزائر، 1990م، مج: 2، ج: 3، كتاب: الإجارة، باب: من استأجر أجيراً، ص: 51 – 52.

[8] هو: سيد العارفين، وقدوة السالكين الإمام المشهور سيدي بومدين شعيب، جمع بين الشريعة والحقيقة، وكان شيخه أبو يعزى يثني عليه لما قرأ عليه بفاس، ولما حج، تعرف بعرفه بالشيخ عبد القادر الجيلالي فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا لما عاد استوطن بجاية وكان يفضلها على كثير من المدن ويقول أنها معنية على طلب الحلال، وكان حاله بها يزداد رفعة يوما بعد يوم إلى أن وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المصور، فبعث إليه في القدوم عليه، وفي طريقه وهو بتلمسان مرض مرضا شديدا حتى مات وكان آخر كلامه الله الحق، توفي رحمه الله سنة 594هـ ودفن بالعباد .ينظر: **البستان**، ص:108- 114.

[9] ابن مريم الشريف المليتي التلمساني: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**, ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1986 م ، ص 109 .

[10] هو : الولي الصالح صاحب الكرامات البديعة و الأخلاق الحميدة، المجاب الدعوة . كان معاصرا لسيدي أحمد بن الحسن الغماري . ينظر: **البستان**، ص:135.

[11] ابن مريم الشريف المليتي التلمساني: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**, ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1986 م ، ص 138 .

[12] رشيد بن مالك: **مقدمة في السيميائيات السّرديّة**، دار القصبة للنشر ، 2000 م، ص: 97 .

[13] يُنظَر: سعيد بنكراد: **مدخل إلى السيميائيات السّرديّة**، منشورات الاختلاف، ط:2، 2003م، ص: 87.

[14] محمد عزام: **شعرية الخطاب السّردي**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط ، 2005 م، ص: 68 – 69.

[15] بول باسكون :**الأساطير والمعتقدات بالمغرب**، ترجمة: مصطفى المسناوي، مجلّة بيت الحكمة، عدد:3، السنة الأولى1986م، ص: 93 .

[16] محمد جحاح: **الرمزي والمتخيل في بنية واشتغال الحقل الصوفي**، ص:24.

[17] آمنة بلعلى: **تحليل الخطاب الصوفي،في ضوء المناهج النقدية المعاصرة**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط:1، 2002م، ص: 244.

[18] وقيل المديوني نسبا الورنيدي مولدا وداراً، أجداده كلهم علماء وأولياء لا يخافون في الله لومة لائم، توفي رحمه الله سنة 998 هـ، ينظر **البستان**، ص:94- 95.

[19] ابن مريم :**البستان** ، ص 94 .

[20] هو : الولي الصالح القطب الغوث المشهور بأبركان ،أخذ عن إبراهيم المصمودي، والإمام ابن مرزوق الحفيد، وأخذ عنه الحافظ التنسي، كان رحيما بالمؤمنين، لا يخاف في الله لومة لائم، قطن المشرق بعد موت والده وبقي مدة طويلة هناك، ثم قدم إلى بجاية وقرأ بها على يد مشايخها، وكذا قسنطينة، ثم استوطن تلمسان، كان متقن لعلم الفرائض وعلم الفقه والحساب ويقرأ لفيه ابن مالك، توفي آخر شوال 857 هـ، ينظر **البستان**، ص:74 – 93.

[21] سيدي علي التالوتي أخو الشيخ السنوسي لأمه، ينظر **البستان**، ص:74.

[22] السباط هو : الحذاء في اللهجة العامية .

[23] ابن مريم :**البستان** ، ص 74 .

[24] هو : الولي الصالح صاحب الكرامات البديعة و الأخلاق الحميدة، المجاب الدعوة . كان معاصرا لسيدي أحمد بن الحسن الغماري، ينظر **البستان**، ص:135.

[25] ابن مريم :**البستان** ، ص 135 – 136 .